الجامعة المستنصرية – كلية الآداب

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية

د. عباس رحيم عزيز

مادة الأدب الجاهلي

المحاضرة السادسة عشرة

الخصائص اللفظية:

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة، فالتراكيب تامه ولها دائما رصيد من المدلولات نعبر عنه، وهي في الأكثر مدلولات حسية، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز، وهكذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقيا لغويا، وهو رقي لم يحدث عفوا فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية من قبل هذا العصر، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدي معانيها بدون اضطراب وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما اسلفنا كانوا يرددون معاني عينها، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقا مرسوما، يسيرون قوافلهم سيرا ويعيدون في الفاظ ومعان واحدة، ويجرون على طراز واحد طراز تداولته مئات الألسنة بالصقل والتهذيب، فكل شاعر ينقح فيه ويذهب ويصفي جهده حتى يثبت براعته.

ولم تكن هناك براعه في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادرا , فاتجهوا إلى قوالب التعبير، وبذلك اصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون , وبالغوا في ذلك , حتى كان منهم من يخرج قصيدته في عام كامل , يردد نظره في صيغتها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية وربما دل ذلك على انه مطولاتهم لم تكن تصنع دفعة واحدة , بل كانت تصنع على دفعات , ولعل هذا هو سبب تكرار التصريع في طائفة منها , ولعله أيضا السبب في تفككها واختلاف عواطفها , فقد كان الشاعر يصنعها في أزمنة مختلفة واغلب الظن انه كان اذا صنع قطعه عرضها على بعض شعراء قبيلة وبعض من يلزمه من رواته , فكانوا يرونها بصورة , وما يلبث أن يعيد فيها النظر فيبدل في بعض أبياتها , يبدل كلمة بكلمة , وقد يحذف بيتا . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلي لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح. وفي أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة وفي هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد , فقد لقبو امرأ القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل لأنه أول من هلهل الفاظ الشعر وأرقها ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلية بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر , كما لقبوا طفيلا بالمحبر لتزيينه شعره , ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره ولقبوا غير شاعر بالنابغة في شعره , ومن القابهم التي تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقب والمتنخل , وقد استطاعوا حقا أن يبهروا العصور التالية بما وفروه لأشعارهم من صقل وتجويد في اللفظ والصيغة , فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى , وما زالوا يصفون في نغم القصيدة , حتى استوى استواء كاملا , سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها , وبرعوا في تجزئه الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة وموسيقية .

فيها جزالة تستوفي حظوظا من الجمال الفني، ولذلك ظلت مائلة في شعرنا العربي عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة. واقرأ في حوليات زهير وقصائده المطولة وفي غيره من المبرزين أمثال النابغة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنترة ودريد بن الصمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبدي فستجدك أمام قصائد باهرة، قد أحكمت صياغتها وضبطت أدق ضبط جزلت وتضخمت بكل ما يمكن من بهاء ورونق.

وقد استعانوا من اقدم أشعارهم , لغرض التأثير في مسامعهم , بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية , وأكثرها دورانا في أشعارهم التشبيه فلم يصفوا شيئا إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي , فالفرس مثلا يشبه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعر والذئب والثعلب ويشبه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام , ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالأفعوان والحبل والهراوة والعيب والجذع وتشبه ضلوعه بالحصير وصدره بمداك العروس وغرته بخمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكير وعرفه بالقصبة والرطبة وحافره بقعب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالخباء . وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة في المفضليات والأصمعيات، ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريفة منها.

بنية القصيدة الجاهلية:

بلغت القصيدة العربية نضجها في البناء الفني قبل الإسلام عبر الموروث الشعري الذي وصل إلينا، فبنيت القصيدة على وفق نسق معين معروف تحدث عنه النقاد القدامى، فرسموا خطوطا لهيكل القصيدة يتألف من أجزاء بنائها مبينين الدوافع التي من أجلها أنشئت القصيدة، فقد أومأ ابن قتيبة (ت276هـ) إلى المنهج الفني لقصيدة المديح بصورة مفصله وبرؤية موضوعية في تحليل مكوناتها وعناصرها , وفي بين العلاقة بين اللوحات الثلاث وهي : المقدمة والرحلة والغرض , وفي كل لوحة من هذه اللوحات , أو الأقسام أساليب متبعه (فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب , وعدل بين هذه الأقسام) , ومما لا شك فيه أن ترتيب أقسام القصيدة , وتناسق أبياتها , وحسن جوار الأبيات مع بعضها , وملائمة الفظها لمعانيها إلى أخره , بعد مقياسا لجودة الشاعر لان بناء نظام القصيدة ((مثلها مثل خلق الأنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر , أو باينه في صحه التركيب , غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم جماله)) وسنبحث في أجزاء بناء القصيدة كأنها وحدات منفصله , لبيان قيمة الأثر الفني في بنائه العلم وفي بيان عناية الشاعر بتفاصيل الوحدات البنائية , والا فالقصيدة لا تتجزأ , لآنها بناء حي متكامل .

أولا / بنية الرجز:

وهي بنية موضوعية متحكمة في ذاتها، لا تحتاج إلى تأمل أو جهد كبير من العناء في صياغتها، بل هي وليدة الانفعال الأولي الذي تبعثه مواقف الحماسة في المعارك والغزوات وغيرها، على أن اغلب الحروب كانت غايتها السلب والنهب لان أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم في أيدي غيرهم وتجد تصوير ذلك في أبيات كثيرة، وكما قال أو دلف العجلي في أحد معاركه وهو يرتجز: من (مجزوء الرجز)

**إني امرؤ عودني ... مهرى ركوب الغلس**

**يحمدني سيفي كما ... يحمد كري فرسي**

ثانيا / بنية المقطوعة:

أما المقطوعة فأنها مما، كان ينبري لجمهرة كبيرة من الناس، والمقطوعة هي التي لا تزيد عن عشرة أبيات ولا تقل عن سبعة أبيات ونحن ليس بحاجة إلى القول بان هذا النمط من الموروث لا يهي فرصة واضحة لتأمل بنية شعرية أو أدائية محددة، بعد ذلك تأمل النموذج الشعري الذي يعتمد الشاعر إلى صياغته بعد احتياز مرحلة الانفعال الذاتي أو الاتي بالحدث فيوفر له من قدرته الإبداعية ما يهيئ لنهاياته التي تستقر في الذاكرة، كما أن فرصة التحول بالحدث إلى نسخ شعري يمتزج فيه الباعث الموضوعي بالانفعالات الإنسانية وتستثمر فيه الطاقة التعبيرية والإبداعية لإيصال القناعة المتفردة إلى وعي المتلقي من خلال استثارة مشاعرة وانبهاره الفطري بالأداء الجماعي، وتاريخ العصر الجاهلي مليء بالمقاطع الشعرية .

ثالثاً / بنية القصيدة ذات الموضوع الشعري الواحد:

إن الرواية الشفهية للشعر الجاهلي ستظل مسؤوله عن اضطراب لا منفذ له لتجاوزه في نظرنا إلى عدد كبير من النماذج، فنحن لا نستبعد أن يكون عدد من قصائد الموضوع الواحد في الأصل بقايا قصائد مكتملة سقطت مقدماتها ولم يبق منها إلا ما عي الرواة بنقله من موضوعاتها لأسباب متشعبة شخصية أو قبلية أو دينية لو لغوية أو نقدية أو سياسية.

رابعاً / بنية القصيدة المكتملة:

أن بنيتها تتحدث بثلاث فترات متلازمة وهي:

1. **الافتتاح (المقدمة)** عني النقاد العرب القدماء بالمقدمة في وصفهم منهج القصيدة العربية وتحدثوا عن تعدد أشكالها وأنواعها على وفق مضامينها وتقاليدها الفنية واستأثرت مقدمات القصائد باهتمام أصحاب الدراسات النقدية، منطلقين في فهم النص وتفسيره في الاستقراء الموضوعي للشعر العربي الموروث القائم على دراسة الأثرين: بيئة الشاعر، ونفسيته واثرهما في ولادة الإبداع الشعري، والاستقراء الموضوعي والتفسير الرمزي للشعر الموروث القائم على كشف جملة من الإيحاءات التي تحرك انفعال الشاعر لحظة إنجاز عمله الإبداعي الفني في استهلاله للقصيدة، وتبقى مقدمة القصيدة ذات وشيجة بموضوعها الخاضع للدافعين النفسي والفني في قول الشعر.

**وقد تنوعت المقدمات في القصيدة الجاهلية ما بين:**

1. **المقدمة الطللية** التي تعد من اشهر المقدمات شيوعا في الشعر العربي قبل الإسلام وفيها يجد الشاعر متنفسا لما يختلج في خلده وبما يدور في ذاكرته من ذكريات تحمل الاسى والشجن والماضيين يحاول الشاعر استعادتها بهذا القالب الفني في عمله الإبداعي، على أن هذا التقديم له وشيجة بموضوع القصيدة الذي يكون الشاعر في صدد الحديث عنه وقد ارسى شعراء قبل الإسلام أصول هذا التقديم ورسومه الفنية، وحرصوا على المحافظة على مقوماته في اقدم ما آثر في مطولاتهم، فألموا بمعظم تفصيلاته، وهكذا تباينت صورة الطلل في مقدمات الشاعر الواحد، لان كل افتتاح له مزاياه الخاصة التي تخالف الافتتاح الآخر، ولا فرق بين شعراء المدن وشعراء البادية في استيفائهم لمقومات المقدمة الطللية فشعراء المدن لم يستطيعوا التحلل من التقاليد الفنية البدوية المرسومة، ولم يخرجوا عليها بحيث يبتدعون نظاما جديدا لمقدمات قصائدهم تغاير في نظامها مقدمات شعراء البادية.